

الإقطاع في انكلترا في القرن الحادي عشر

الباحثة بيدا جبار محمد

كلية التربية للبنات/ جامعة بغداد

يُعدُّ موضوعُ (الإقطاع في انكلترا في القرن الحادي عشر) من المواضيع المهمة ، وتكمن أهميته في نشوء نظام سياسي واقتصادي واجتماعي ميز العصور الوسطى في غرب أوروبا عموماً ، وإنكلترا على وجه الخصوص في القرن الحادي عشر ، إذ قام على حيازة الأرض وتنظيم العلاقة بين السيد والتابع الذي لاحقاً له سوى خدمة المالك والدفاع عنه وزراعة الأرض ووفقاً لذلك يرى الباحثان أنَّ نظام الإقطاع قد ساهم بشكل آخر في تطور النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع في إنكلترا . وعلى هذا الأساس اعتنى هذا البحث بمحاولة سبر غور ذلك النظام في ضوء الإجابة على التساؤلات الآتية :-

- ما الأوضاع السياسيَّة والدينيَّة في انكلترا في القرن الحادي عشر ؟
- ما أركان الإقطاع وما القضاء الإقطاعي ؟
- وكانتْ الأجابهُ على هذه التساؤلات وتساؤلات اخرى هو الهدف الأساسي لهذا البحث .

المبحث الأول :

الأوضاع السياسيَّة والدينيَّة في انكلترا في القرن الحادي عشر

- إنكلترا تحت الحكم النورماندي (١٠٦٦ - ١٠٩٧) :-

حينما توفي ملك انكلترا ادوارد المعترف Edward the confessor

(١٠٢٤ - ٥ كانون الثاني ١٠٦٦) الذي لم يكن له أي وريث ، وقد سمَّى ادوارد المعترف وهو علي فراش الموت في كانون الثاني هارولد جوديسون Harold Judeasn ملكاً على انكلترا (٥ كانون الثاني ١٠٦٦ - ١٤ تشرين الاول ١٠٦٦) ^(١)

غير أن William دوق النورماندي (١٠٣٥ - ١٠٨٧) وابن عمه ادوارد المعترف ، ادّعى وبناء على وصية الملك الراحل له بحقه بالعرش وادّعى ايضاً أنّ هارولد جوديسون قد وعده بأنه سيسانده في مطالبته بالعرش ، بعدها بنى وليام أسطولاً كبيراً^(٢) .

رست قوات وليام على الشواطئ الانكليزية وتقابلت مع قوات هارولد في معركة هاستينغز في ١٤ تشرين الأول ١٠٦٦ ، وفي تلك المعركة قُتل هارولد وإخوته وانتصر وليام انتصاراً ساحقاً واكتسب لقب وليام الفاتح^(٣).

تحقق النصر النورماندي في معركة هايسنتغز ولم يعد هناك منافسون خطرون لوليام الفاتح على التاج الانكليزي، وفي يوم عيد الميلاد العام ١٠٦٦م توج ملكاً على انكلترا في كاتدرائية وستمنتر في لندن^(٤) . وعليه نجح وليام في تأسيس دولة جديدة حول الفنال الانكليزي، إذ بدأت مرحلة حكم الانكلو نورمان^(٥).

نستخلص من معركة هايسنتغز أنّ المجتمع الأوربي في العصور الوسطى كان مجتمعاً تواقاً للحرب، إذ أنّ تلك القبائل الغازية التي تكون منها المجتمع جُبلت على الحروب وولدت وترعرعت على ذلك^(٦) .

فضلاً عن ذلك أنّ نظام الإقطاع الذي نشأ ونما وتطور في أوربا في تلك المدة بعد أن كان من أجل حماية المجتمع من تلك القبائل الغازية أصبح عاملاً في مساعدة تلك القبائل على الحروب^(٧).

وبذلك استطاع وليام أن يجعل من انكلترا دولة موحدة ومن نفسه ملكاً عليها، ومن النظم التي نشأت في بلاط هذا الملك وسلالته ، النظم النيابية التي توارثتها دول العالم^(٨).

قام وليام بتكريم أنصاره بمنحهم الكثير من الأراضي والغنائم والمناصب والامتيازات الإقطاعية^(٩).

وجرد الأمراء المعارضين من أراضيهم التي هي مصدر قوتهم ووزعها على رجاله المخلصين من النورمان، ولما كان الاخيريين مضطرين للدفاع عن أنفسهم فقد بنوا القصور المحصنة، كما احتفظ هو بأراضٍ شاسعة أصبحت ملكاً للتاج^(١٠).

ولما كانت الفوضى والحروب في أوروبا منذ القرن الحادي عشر الميلادي، فلم يكن ثمة سبيل إلى إعادة الاستقرار في أوروبا إلا بعد استكمال ثلاثة من الأركان الرئيسية في الحكم وهي:-

أصبح هذا قانوناً يحترمه الناس ويسبغون على ضوئه ، فضلاً عن جباية مالية معلومة المبلغ والمواعيد ، زد على ذلك قوة حربية كافية للدفاع عن البلاد^(١١).

اجتمعت تلك الأركان في الحكومة التي تدين بها انكلترا إلى الملك وليام ولان بدت تلك الحكومة استبدادية ملؤها القسوة فأنها دلت آخر الأمر إلى ما فيها من مزايا لصالح الشعب الانكليزي^(١٢).

وعلى الرغم أن وليام استمد شرعية فتح انكلترا بمباركة من البابوية، إلا أن سلطته امتدت إلى رجال الدين، فحين فتح وليام انكلترا وجد رجال الدين يعيشون حياة أقرب إلى الحياة المدنية من الحياة الكنسية^(١٣) .

ولم يكن بوسع وليام إصلاح كل رجال الدين فاستبدل بعضهم برجال دين من نورمانديا، فاستقدم القساوسة والأساقفة و رؤساء الأديرة، وكان على رأس أولئك لانفرانك Lanfrank الذي أصبح رئيس أساقفة كانتربوري، وتعاون لانفرانك مع وليام في وضع نظام جديد للأديرة وفُصلت المحاكم المدنية عن المحاكم الكنسية وجمع الضرائب لدعمها^(١٤).

كان الصراع الانكليزي - الفرنسي واضحاً في تلك المدة، فقد كان ملك فرنسا فيليب الأول (١٠٦٠-١١٠٨) سيداً على كبار الأمراء الإقطاعيين لكنه لم يكن يتمتع بأي سلطان حقيقي على غيره من الدوقات والكونتات^(١٥) .

في حين إن الدوق النورماندي الذي أصبح ملكاً على انكلترا بعد العام ١٠٦٦م عُد من الناحية العملية ملكاً نورماندياً في المقام الأول، لا مجرد كونه تابع إقطاعي لمملكة فرنسا. ولم يكن غازياً بل صاحب شرعي في العرش، إذ أنه ينتمي بصلة قرابة عن بُعد إلى الأسرة الملكية الانكلوسكسونية^(١٦).

بعد موت وليام انتقل حكم مملكته إلى ولديه وليام الثاني (١٠٨٧م - ١١٠٠م) و هنري Henry (١١٠٠م - ١١٢٥م) وكلاهما كانا أقوياء، وان كان هنري قائداً ماهراً و فقيهاً في القانون، وإدارياً مبدعاً، واستطاع ان يقضي تماماً على حركات التمرد في انكلترا، واستغل حالة الرخاء الاقتصادي المتزايدة وذلك بانتهاجه سياسة ضريبية مرهقة وكان بخيلاً ، ولكن عهده اتسم بالحزم والمقدرة العسكرية وهما من المستلزمات الأساسية للحكم الناجح^(١٧).

- الكنيسة وتأثيرها على الأوضاع العامة في انكلترا:-

غرس الكنيسة المعتقدات الدينية المسيحية التي يؤمن بها المجتمع الأوروبي فلا بدّ من فهم الكنيسة فهماً تاماً لأنها مفتاح الأساس لذلك العهد المنصرم (العصور الوسطى)^(١٨).

ففي القرنين الثاني والثالث انتشرت المسيحية في كل مناطق الإمبراطورية شرقاً وغرباً حتى خارج الحدود إلى أقاصي العالم المعروف وقتذاك، زد على ذلك اكتمال النظام الكنسي حسب المراكز المهمة في المدن الكبرى (روما، أنطاكية) والأقاليم الرومانية الرسمية (آسيا الصغرى، أفريقيا الشمالية، أوروبا)، فضلاً عن ذلك أنّ المسيحية في البدء انتشرت لدى البسطاء والعمال والجنود لكن سرعان ما قبلتها طبقات المجتمع كلها^(١٩).

وذلك دون تمييز عنصري بين العبيد والأحرار وبين النساء والرجال، وبين الرومان والبرابرة واليهود والوثنيين فكلهم يعيشون الحياة المشتركة وسط أعضاء جماعة المؤمنين وحسب النظام المحلي البسيط المعتمد على الأخوة المسيحية فيما بينهم^(٢٠).

كانت الوحدة الأساسية لإدارة هذا النظام (الأبرشية) يحكمها القس وباتحاد الأبرشيات تتكون الأسقفية تحت رقابة الأسقف، ومن إتحاد هذه تتكون المقاطعة ويحكمها رئيس الأساقفة ومن ثمّ رجال المحاكم إلى رجال الخزينة ورجال الإدارة إلى مجلس الكرادلة الذي كان البابا يعينهم وفيما بعد أصبحوا هم المسؤولون عن تعيين البابا الجديد، فضلاً عن الرهبان والراهبات وهكذا إلى أن تصل إلى روما^(٢١).

وهكذا فإنّ البابوية تنظم سيادتها على أسس إقطاعية مما جعل التطابق محكماً بين الكنيسة والجهاز السياسي في غرب أوروبا^(٢٢).

وقد بلغت الكنيسة مرحلة حاسمة في تاريخها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وهو العصر الذي عرف بعصر البابا (Gregory7) أعظم بابوات العصور الوسطى (١٠٧٣-١٠٨٥) ^(٢٣).

أن جريجوري السابع وقف ضد الإمبراطورية بعناد لإجبارها على الاعتراف بسمو البابوية وبأنها مصدر جميع السلطات السياسية والدينية^(٢٤).

فنقم البابا وسخط من الحاجز الذي بناه وليام بينه وبين الكنيسة، لكن الملك لم يكن يسمح بأي تدخل بابوي في شؤون الحكم في انكلترا، وقد حاول جريجوري السابع التدخل مرات عديدة ولكن دون جدوى محذراً وليام من مغبة العواقب التي سوف تلحق بها جراء عدم الولاء له^(٢٥).

إذ لم يكن وليام مستعداً بأي حال من الأحوال أن يخضع لما كان يعدّ أفكاراً سلطوية جديدة ولكن يؤمن باستقلاله عن البابوية، أصدر عدة مراسيم ملكية، بأن لا يبرم أي بارون أو وزير ملكي كتباً دون الرجوع إلى الملك في ذلك الأمر وألا يغادر أي أسقف إلى أي مكان دون إذن الملك ولا يسمح باستقبال أو قراءة أي رسالة ترد من البابا قبل تمريرها أو قراءتها للملك^(٢٦).

ومن ناحية أخرى، كان لرجال الدين الاثر الأكبر في تشجيع المزارعين وعامة سكان المدن على المشاركة في الحملات الصليبية التي كانت من أهم أسبابها الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المحيطة والجو الفكري المُشبع بالخرافات والتدين العاطفي والتعصبي، وهذه الدوافع التي حركت المقهورين من أبناء الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر ومنهم المزارعين على وجه الخصوص إلى الاندفاع للمشاركة في هذه الحملات التي سميت باسم الصليب المقدس تحت زعامة البابا الدينية والسياسية^(٢٧).

ومن شدة ذلك التحمس الديني لم يفهم موقف المسيحيين الشرقيين، ولم تحترم كرامة المجتمع الإسلامي، لأنه لم يكن يفهم الفارس الغربي، إلا الشر والخير المنقسم بصورة مطلقة بين جماعته وغيرها وتعدّ تصرفاته كالقتل والسرقة مع تأسيس الإمارات اللاتينية عن موقف التسلط الشديد باسم المبادئ الدينية والاجتماعية الكاذبة غير مستحقة للمسيحية الصحيحة، وفي هذه الحقبة من التاريخ كان بإمكان البابا أن يوحد كل القوى الغربية للقيام بحملة إيمانية لكن تحقيق هذا الهدف كان يفوق طاقة المجتمع الغربي آنذاك لذا فإن نتائج هذه الحملات لم تكن إلا خسارة فضيعة، مع استمرار عداء أوربي للشرق المسيحي والإسلامي عبر القرون^(٢٨).

المبحث الثاني

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في انكلترا في القرن الحادي عشر

- طبقات المجتمع في انكلترا:-

كانت لكل طبقة من طبقات المجتمع، خواصها ومميزاتها ومكانتها ونتيجة لما تتمتع بها هذه الطبقات من مميزات في عصر الإقطاع، إذ كان هناك رجال الدين والنبلاء والفرسان والرقيق وهذا النظام ولید ظروف الانتقال من عصر الدولة الرومانية إلى عصر الحكومات المحلية التي بدأت بالظهور في أواخر العصور الوسطى^(٢٩).

ويمكن إجمال تلك الطبقات كالآتي:-

١- رجال الدين:-

كان رجال الدين هم الطبقة الأعلى في المجتمع الأوربي في تلك الحقبة ، وذلك لما يتمتع من قوة في إدارة شؤون الحياة المادية والثروة التي حصلوا عليها من المساكن والمكاتب والمزارع وجيش من الموظفين الذين كانوا يشتغلون في الفروع المختلفة في إدارة مدينة الله (الكنيسة)^(٣٠).

٢- النبلاء والفرسان:-

كان أبناء النبلاء أمام خيارين إما الانخراط في سلك الرهبة أو التدريب العسكري منذ حدثتهم فيتعلمون ركوب الخيل واستعمال السلاح حتى إذا ما شبَّ الواحد منهم انخرط في سلك بلاط أحد الأمراء الإقطاعيين كتابع صغير أو سيد صغير ليتعلم آداب السلوك في المجتمع وفي بداية مرحلة الشباب يمكن أن يرتقي الفتى إلى مرتبة مساعد فارس، وعندئذ يُسمح له بالاشتراك في المعارك مع الفرسان الذين يكبرونه سنًا ويتعلم منهم فن الحرب^(٣١).

٣- طبقة المزارعين والعبيد:-

لقد خضع المزارع في العصور الوسطى لحكومة ليس له في اختيارها نصيب وأحاطت به سلطات واحتكارات لم يشترك في فرضها، كما أنه رضي بالمعيشة تحت تلك السلطات مع بدايتها من عدم صلاحية كلما طال عليها الأمد، ثم انه قنع بما في أفقه الضيق فلم يتجاوز تفكيره أطراف قريته أو المدينة المجاورة^(٣٢).

أما عن العبيد الذين كان عملهم الجسدي في منزل السيد غير كافٍ وغير مقيد فتمَّ نقلهم للعمل في الأرض الزراعية^(٣٣).

فضلاً عن ذلك أنَّ الكنيسة كانت تُصر على أنَّ العبيد لهم أرواح تحتَّ السادة على معاملتهم بوصفهم مسيحيين^(٣٤).

وقد اعتاد الفرد أنَّ من يخدمه بأجره فهو أقل منه قدراً ويعده في وضع اجتماعي متدنٍ^(٣٥).

إذ كان مالك الأرض سيداً أقل تعسفاً من الإمبراطورية الرومانية وكان في أغلب الأحيان يستطيع الدفاع عن مستأجريه ضد حروب الإجحاف والظلم التي عاملتهم بها قوانين الإمبراطورية^(٣٦).

- تطور النظام الاقتصادي:-

إن اقتصاد انكلترا في القرن الحادي عشر اقتصاداً طبيعياً مرتبطاً بالأرض، إذ اتخذ طابعاً زراعياً بحثاً من نهاية القرن الثامن فأصبحت الأرض هي المصدر الرئيس للثروة واعتمدت جميع طبقات المجتمع على ماتدره الأرض من خبرات فهي الأساس الذي قام عليه بناء الحياة الاجتماعية والاقتصادية آنذاك^(٣٧).

فالسكن في الريف والغذاء واللبس والأدوات كلها أمور في غاية البساطة، تنتج محلياً، إذ كان الفقراء يسكنون في أكواخ خشبية ذات سقف من القش ويعيشون على الخضر، أما خبز القمح واللحم فكانا طعام الأغنياء أيام الأحاد ويعتمدون على سوادهم في كل ما يحتاجون إليه^(٣٨). لقد كانت (الضيعة)^(٣٩)، وحدة نظام الملكية الزراعية في تلك العصور، كما كان الإقطاع وحدة نظام الإقطاعي بمعنى أن الإقطاع كان يمكن أن يتألف من عدة ضياع، وكانت الضيعة أشبه بمملكة أو عالم صغير يحكمها سيد يتمتع بسلطة مطلقة ويمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتي، فالضيعة كانت تكفي نفسها بنفسها إلى حد كبير وتنتج جميع المواد الغذائية وغير الغذائية اللازمة لاستهلاك أهلها، ماعدا بعض الكماليات كالتوابل التي يمكن لصاحب الضيعة أن يستوردها إذا أراد أن يستعملها^(٤٠).

ثم وجدت حالة من السلام والاستقرار في القرن الحادي عشر مكنت التجار من مباشرة نشاطهم وبالتالي ساعدت على ازدهار المدن فضلاً عن ذلك ما كان من حركة الإصلاح الكنسي التي ترتبط في التاريخ باسم دير Clooney، ثم جاءت الحروب الصليبية لتضيف عاملاً مهماً إلى العوامل التي أدت إلى تحطيم نظام الإقطاع، وتشجيع التجارة والصناعة بحيث لم تعد الأرض مهد الثروة^(٤١).

استمرت التجارة لكن ليس في أي من أساسيات الحياة إلا في مواد الرفاهية والتوابل والمواد اللازمة لثياب البلاط وملابس رجال الكنيسة^(٤٢).

فالأمراء المحليون سمحوا للتجار (اليهود) بالإقامة بجوار حصونهم، نظراً للفائدة التي تعود عليهم من وراء فرض الضرائب على تجارتهم من ناحية وإثارة نوع من النشاط التجاري في انكلترا في ذلك العهد من العصور الوسطى، وكان هؤلاء التجار أول الأمر متنقلين لا يعرفون حياة الاستقرار في منطقة بعينها، لكنهم أخذوا يستقرون تدريجياً بعد ذلك ليجعلوا في بيوتهم مخازن تجارية حقيقية^(٤٣).

وفي لندن كانت تجارة الرقيق التجارة الرائجة^(٤٤)، فالجواني يحملون إلى أسواق مصر والشرق فضلاً عن الأخشاب والحديد ويستوردون بدلاً منها مختلف الحاصلات الشرقية^(٤٥).

والتجار يتعاطون الأعمال بين مدينة وأخرى، والأرباح التي يحققونها يجب ردها بعد كل حساب إلى المنافع التي يجنيها سكان المدن الأغنياء^(٤٦).

أما الصناعة فكانت تعمل عادة للسوق المحلية، غير إن صناعتي النسيج والتطريز كانت أكثر تقدماً عن سائر الصناعات ، فضلاً عن صناعة الجعة والنبيد، وغزل الأصواف (٧٠) .

إنّ هذه الحرف فتحت باباً للعمل أمام المرأة بشكل كبير، على الرغم من حرص بعض النقابات على تحريم اشتغال النساء بأعمال معينة بسبب رخص أجورهن حتى لا تنافس الرجال في تلك الأعمال وبذلك تهيأت لهن قسطاً من الثقافة الراقية والعمل المنتج^(٤٨).

المبحث الثالث

الإقطاع في إنكلترا في القرن الحادي عشر

- تعريف الإقطاع:- ((Feudal))

كان الإقطاع في القرن الحادي عشر هو الأساس الذي تقوم عليه الحكومة المحلية والقضاء والتشريع والجيش وكل السلطة التنفيذية في تلك المدة^(٤٩).

فهو إذن نظام سياسي واجتماعي واقتصادي كبير يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأرض، وتلك الأرض كان الإمبراطور يهبها للملوك و أولئك يمنحونها للإشراف والنبلاء، وهكذا إلى أن تصل إلى رقيق الأرض في أسفل السلم الإقطاعي^(٥٠).

وقد عُرف الإقطاع على انه تجربة عملية فرضتها الحوادث على المجتمع الإنساني عامةً، والأوربي خاصةً، لتستعيض بها عن الحكومة المركزية البعيدة عن متناول الجماعات، وابتغاء الحصول على قسط من الأمن، وهو الذي من أجله عملت الجماعات وكدت وبذلت منذ فجر التاريخ^(٥١).

وربما فأن الإقطاع حالة لم يتم فيها إحلال السلطة على أسس تحالفه شعبية قومية من قبل الأفراد تجاه حكومتهم المركزية ولكنها وضعت على أسس خاصة تتعلق بالأفراد فيما بينهم تلك العلاقة التي جعلت من السيد شخصية نمطية ماله للأرض لها مميزات الحاكم والقائد الحربي، فيما يظهر التابع متلقياً لكل تلك الأمور، ومسيطر عليها فيها^(٥٢).

وبمعنى أدق ، فالإقطاع:- هو مجموعة من النظم والقوانين خضع بموجبها رجل حر لرجل حر آخر هو السيد، إذ أدى له يمين الولاء والخدمة ولاسيما

الخدمة الحربيّة، ونظير ذلك التزم السيد بحماية تابعه والإنفاق عليه، ثم تطور الأمر إلى منحه قطعة أرض اتخذت أسم إقطاع^(٥٣).

ومما تقدم يمكننا القول إن الإقطاع:- هو نظام شامل لعدة أنظمة تحكم المجتمع وهو يوضح أو يحدد موقف الفرد وعلاقته بمن هو أعلى منه، وبمن هو أدنى منه، وهو يعتمد أساساً على الأرض الزراعية^(٥٤).

- أركان الإقطاع:-

إنّ الأركان الرئيسة للإقطاع تتمثل في (المجتمع القروي، نظام الدومين، عصر النمو الإقطاعي)، وعند دراستنا لاثنتين هما الركنان الرئيسان من الأركان الثلاثة التي تكون منها المجتمع الإقطاعي وهما (القرية والدومين) فأنا بذلك سنهتدي إلى صورة واضحة للنظام الإقطاعي الذي قام بين الناس في تلك الفترة^(٥٥). وأولى تلك الأركان هي:-

١- المجتمع القروي:-

تكونت القرية الإقطاعيّة من مجموعة من المزارعين بعضهم من الأقنان والبعض الآخر من الأحرار، إذ كان هؤلاء المزارعون يبنون أكواخهم قرب قصر أو قلعة السيد الإقطاعي وذلك للاحتماء به، لذلك كانت الأكواخ متقاربة من بعضها داخل أسوار القرية من أجل الأمان^(٥٦).

فالمزارع يُعد أساساً للمجتمع القروي، إذ تفاوت المزارعون أنفسهم ما بين عبيد وأحرار^(٥٧).

على الرغم من أن الغالبية العظمى كانوا قد شغلوا حالة متوسطة في القرنين التاسع والعاشر الميلادي عرفوا (بالاقنان) وهؤلاء الذين ارتبطوا بالأرض^(٥٨).

عاش المزارعون بتعاسة، بحكم كونهم من العبيد والاقنان الذين لا يملكون شيئاً ولا يستطيعون التصرف في شيء لأنّ القن لم يكن له ربح سوى ما يلتقطه بكده وتعبه، وسكن المزارعون أكواخاً بنوها بأنفسهم من فروع الأشجار وجذوعها وأحياناً، كان يجتمع في تلك البيوت الخشبية عدد من أولئك المزارعين يعيشون معاً ويشتركون في خدمة السيد الإقطاعي^(٥٩).

فالقرية كانت وحدة اجتماعيّة ودينيّة فالقرويين يحتفلون بأعيادهم ومناسباتهم بزواج أبناءهم وبناتهم في نطاق المجتمع القروي^(٦٠).

إنّ المجتمع الإقطاعي الأوربي اعتمد على ذلك المزارع اعتماداً كلياً يصعب فهمه على أبناء العصر الحاضر في أوربا منذ طغت اقتصاديات التجارة الدولية والسندات المالية والشركات والمناجم والمصانع على كل شيء ، فمن المزارع مباشرة استمد البابا ورجال الدين والملوك وسائر سادة المجتمع الإقطاعي قوتهم ، يأكلون ويشربون ويلبسون، فضلاً من الله ونعمة^(٦١) .

لذلك لم تخلُ الحياة في الريف الانكليزي من مظاهر العصور الوسطى خلواً تاماً، فإنّ الشائع في انكلترا لا يزال يصادف هنا وهناك هذه الحقول المكشوفة وقطع الأراضي المُبعثرة التي كانت تميز المزارع في العصور الوسطى وعلى الرغم من أنّ انكلترا كانت أولى الدول التي استبدلت هذا النظام بنظام آخر يقوم على إنشاء المزارع الواسعة المسورة التي توفر أصحابها من النبلاء على تحسينها، وإن كانت انكلترا لا تزال تحمل من رواسب العصور الوسطى ما تحمل^(٦٢) .

إذ ظلت الحوصص الزراعية على بعثرتها في انكلترا حتى زمن الكاتب أرثر ينج في القرن الثامن عشر الميلادي ولا يزال نظامها باقياً إلى وقتنا هذا في بعض المدن الأوربية، ولذلك يمكننا الاتفاق أنّ العبارة الآتية خير ما يصدر به كل باحث بحثه في النظام الزراعي في العصور الوسطى وهي ((إن حصة من حصص فلان تبلغ مساحتها ثلاثة أرباع من فدان، يحدها من الشمال فدان في حوزة فلان، ومن الجنوب نصف فدان في حوزة فلان، ومن الغرب الطريق العام، ومن الشرق فدان من أراضي الدير الفلاني)) وان هذه العبارة واردة في وثائق العصور الوسطى أي بدفاتر الضرائب وسجلات أملاك النبلاء السالفين في تلك العصور وهكذا تلاشى ذلك المجتمع القروي كما تلاشى معه كل نظام الزراعة المشترك في غرب أوربا^(٦٣) .

٢- الدومين:-

وتعني كلمة (Dominuie) السيد المالك ولما كان السيد المالك ولما كان السيد المالك قد أطلقت عليه أسماء مختلفة في أنحاء أوربا منها (Lord) وتعني المستشار في انكلترا، (Baron) أو (Doge)، فمعنى ذلك إن تلك الألقاب لا تبعد كثيراً عن كلمة السيد المالك في درجات مختلفة^(٦٤) .

نظام الدومين:- هو النظام الذي انتقلت خصائصه دومين العصر الإقطاعي أي من القرن التاسع الميلادي فصاعداً، فصارت الأرض الزراعية تنقسم على قسمين رئيسيين يختص السيد بأحدهما ويوزع ثانيهما بين المزارعين حصصاً مقابل ما يؤده للسيد الإقطاعي الممتلك أعمال الحرث والزرع والحصاد في الأرض الخاصة به^(٦٥) .

لقد كانت العلاقة بين السيد والمزارع عبارة عن توازن بين الاحتياجات والقوة النابعة من حاجة الإنسان الملحة إلى السلطة وحب التملك وحاجة الإنسان الضعيف إلى الحماية والبقاء، إذ أكدت العلاقة ان كلاً من النبلاء والمزارعين قد ولدوا مناسبين تماماً لأوضاعهم، وإنهم يجب ان يبقوا هكذا إلى الأبد، كذلك كان هناك اعتقاداً ان دماء النبلاء تختلف تماماً عن دماء غيرهم^(٦٦).

إذن فإنّ تنظيم المجتمع يكون على أساس التعاقد بين الأفراد فكل أنواع التنظيم السياسي والعلاقات الاجتماعية ترجع إلى العقد الإقطاعي، إذ اعتمد الوضع العام لكل فرد من الأفراد على حالة من الأرض وحدد تملك الأرض ما هنالك من حقوق وواجبات سياسية، مثال على ذلك التنظيم العام في انكلترا قام على أساس إنّ جميع الأراضي يمنحها الملك لعدد معلوم من كبار الإقطاعيين وإنّ سائر السكان في انكلترا خاضعون للقانون عن طريق سادتهم^(٦٧).

* أما الركن الثالث من أركان الإقطاع هو:-
٣- النمو الإقطاعي :-

لقد استغرق النظام الإقطاعي في عملية النمو مدة القرنين التاسع والعاشر الميلاديين على أقل تقدير، ذلك خلال أحداث سياسية صاخبة واضطرابات اجتماعية واسعة، ويمكن تقسيمه بدوره على عصور ثلاثة وهي (عصر التمهيد للنظام الإقطاعي، عصر نموه، عصر نضجه واكتماله)^(٦٨).

ومن مقدمات التمهيد للنظام الإقطاعي فساد الحكومة المركزية للدولة الكارولنجية، وكثرة الحروب الأهلية والغزوات والركود الاقتصادي هذه الظروف كلها ساعدت ومهدت على ظهور الإقطاع لحالة جديدة قابلة للتطور نحو المحلية^(٦٩).

أي إن المجتمع الإقطاعي في عصر تمامه أشبه في بنائه شكلاً هرمياً رأسه الملك أو الإمبراطور وتحت ذلك طبقة كبار الملاك ويليهم صغارهم، وبهذا ان طبقات المجتمع تكونت تكويناً فردياً منفصلاً ثم جمعتها سلسلة من التطورات فجعلت منها بناءً واحداً متجانس الأجزاء^(٧٠).

- الجيش والفروسية في ظل النظام الإقطاعي:- كانت الحرب هي الرياضة المفضلة عند الفرسان وغيرهم من أفراد الطبقة الارستقراطية في المجتمع الغربي الوسيط، ففيها يشبعون رغبتهم التي ورثوها عن أجدادهم الجرمان فقد كان يحدد يوم النزال بين فريقين من الفرسان يمثلان في معظم الأحيان صاحبين متخاصمين ويكون الحكم أحد الفرسان، إذ كان يصطف المتبارزون على ظهور خيولهم ويستمر القتال حتى ينتصر أحد الفريقين على الآخر ويجرده من سلاحه،

كانت تلك الهوية لعبة خطيرة، لا تراق فيها دماء ولا تزهق فيها الأرواح ومع ذلك ينال الغالب شرفاً كبيراً، فضلاً عن الأسلاب والغنيمة، فقد كان من حقه الاستحواذ على خيل المغلوب وسلاحه، مالم يستردهم الأخير مقابل مبلغ معلوم^(٧١).

ففي المجتمع الإقطاعي الحربي، منح السيد الإقطاعي تابعه لأراضي زراعية مقابل الولاء والخدمة، وكانت خدمة عسكرية فروسية في المقام الأول وعرف ذلك بالإقطاع العسكري، وكان ذلك النظام استجابة منطقية لمتطلبات الدفاع المحلي، وندرة الأموال التي حتمت منح الأرض مقابل الخدمة بدلاً من دفع النقود^(٧٢).

ونظراً لأنّ الصفة التي كانت غالبية على ذلك المجتمع في القتال وممارسة الحرب الإقطاعية، فقد حاولت الكنيسة أن تعد من تلك الحروب وان تحول جهود الفرسان إلى ما عدته نفعاً وفائدة، فبذلت الكنيسة كل ما طاقتها، محاولةً حصر نطاق الحرب في المجتمع الإقطاعي خلال القرن الحادي عشر بصفة خاصة^(٧٣).

واشتدت الكنيسة في الدعوة إلى منهجها الرسمي، وفي الحرص على أن تتال نصيبها من الغنيمة في الحرب^(٧٤). لذلك قررت الكنيسة باسم (السلام الإلهي)^(٧٥).

وهي التي يتحتم فيها تحريم القتال، وفرضت على النبلاء الإقطاعيين أن يكونوا جماعات لحفظ السلام، وان يدعوا بعدم القتال في أيام معينة، ويبدو أنّ رجال الدين كانوا قد نزعوا إلى فكرة تحويل نشاط الفرسان إلى قتال المسلمين^(٧٦).

فقد كان الجيش الإقطاعي جيشاً نظامياً بحكمه ائتلاف إقطاعي وكان يتولى قيادة ذلك الجيش الأمير أو الماركية أو الدوق أو الكونت، أما الأسقف فكان يتقلد برتبة لواء والقسيس أو الراهب رتبة نقيب، أما الفرسان يلتحقون بسلاح الفروسية، بينما كان مراقب الأملاك (الوكيل) مساعداً مباشراً للسيد أو مالك الأرض أما البسطاء فقد كانوا عبارة عن وحدات مشاة وكانوا يسيرون خلف الجيش الإقطاعي والذين شاركوا في العديد من الحملات الصليبية عبر التاريخ^(٧٧).

أما عن صفات الفارس فكانت تعبر عن مستوى معين في الأخلاق والسلوك ويجب أن يتحلى بها أفراد تلك الطبقة من المحاربين في علاقاتهم مع بعضهم البعض، فالفارس يبتغي أن يكون شجاعاً إلى درجة المجازفة والتصور يقاتل وفقاً

لقواعد خاصة دون أن يلجأ إلى الخديعة والأساليب الخسيسة للتغلب على خصمه، فضلاً عن ما يجب أن يتحلى به من وفاء لأصدقائه وتبجيل للمرأة واحترام العهد، وإذا انتصر على خصمه عامله معاملة كريمة وَعَدَّ الأسير ضيفاً يحسن معاملته بل وإطلاق سراحه ليتمكن من جمع فديته وأحياناً يتم قبول ابن الأسير أو أخيه رهينة إلى أن يقوم الأسير بجمع فديته وينبغي أن يتحلى الفارس بالفضيلة والكرم والسخاء والجود والعطاء^(٧٨).

وكان الفرسان يرتدون عادةً القميص والجوارب الطويلة، فالأول عبارة عن صدار يربطه حزام من الوسط، والثانية أشبه بشيء من سراويل مشدودة على الساقين والفخذين بإحكام وأحياناً في حالات البرد والاحتقالات يرتدي معطفاً يربط من أعلاه حول الرقبة حتى لا يعوق مقبض السيف^(٧٩).

ويُعد الفرس الذي يمتطيه الفارس الجهاز الأساسي للحرب، فبدونه لا يُعد الفارس فارساً، فهو فرس (مطعم) مزود بالسرج والركاب واللباس (٨٠) •

ولقد كانت الفروسية عماد الحروب الإقطاعية^(٨١). والفارس نوعان هما فارس السيف و(فارس الحمام)^(٨٢) •

أما فارس السيف فهو الذي أخذ ذلك اللقب في ميدان القتال، نظير بسالة في الحروب أما فارس الحمام فقد مرّ بمراحل كثيرة منذ صباه^(٨٣).

ولابد الإشارة إلى المعادل والحصون فقد كانت معادل يلوذ بها أهل المنطقة فراراً من هجمات الأعداء وبخاصة الفايكنج، وتطورت مع تطور النظام الإقطاعي، حتى غدا الحصن الإقطاعي مقر السيد وحاشيته وبذلك صارت الحصون الإقطاعية مسرحاً بجزء كبير من النشاط الاجتماعي للطبقة الإقطاعية في العصور الوسطى^(٨٤).

لذلك كانت طبقة الجيش والفروسية ثمرة لنظام اجتماعي قديم كما كانت تتمتع بامتيازات عظيمة وتوكل إليها مسؤولية لحماية الإمبراطورية في تلك الفترة^(٨٥).

- القضاء الإقطاعي:-

كان القانون الإقطاعي نظاماً في غاية التعقيد، فقد حرم الأبناء من حصتهم في الميراث حيث جعله للابن الأكبر أدى ذلك إلى انتشار الأحقاد بين الأخوة وفي الأسرة الواحدة، الأمر الذي صعد الفوضى والفساد في البلاد^(٨٦).

وقد جرت العادة أن يقوم بالوصاية الخال الأكبر للوريث نظراً لأنه لا يملك أي حق وراثي في الإقطاع وفي كثير من الأحيان كان يتولى السيد الإقطاعي نفسه الوصاية على الوريث وأرضه^(٨٧).

لقد أذعن جميع المزارعين بدون استثناء للقاضي في محكمة السيد الإقطاعي في حين لم يتبع الأمراء الآخرون إلا في النادر التقاضي أمام المحاكم العامة في حالة الجرائم والجنح وقد تنوع اختصاص السلطان القضائي الإقطاعي في الاقطاعات المختلفة تبعاً لمدى الجور الإقطاعي على سؤدد الملك، ولقد بلغ ذروته في فرنسا ووصل إلى أدنى مستواه في انكلترا، ولكن أينما كان فإنه شمل على الأقل المسائل التي تخص الإجراء والعمال و(المكوس)^(٨٨) وزراعة التربة^(٨٩).

فعادةً كان إجراء المحاكمة عن طريق القتال أو صدور حكم الخيانة فإذا حدث النزاع على الأرض أو جرى اتهام شخص باغتيال رجل دون مبرر تخلت المحكمة الإقطاعية للمتقاضين تسوية النزاع بينهما عن طريق القتال فإذا حلت الهزيمة بأحدهما تفرض عليه العقوبة التي نص عليها القانون الإقطاعي^(٩٠).

فضلاً عن انتشار الرشاوى في المحاكم الإقطاعية ومعنى ذلك إن القضاء دائماً سيكون في جانب الشخص الذي عنده قدرة مالية أكبر للدفع ولما كان المزارع أقل درجة مادية فمن الطبيعي أن تكثر الأحقاد فيما بينهم^(٩١).

وفي انكلترا تجنب القانون ازدواج فكرة الملكية المرادفة بين ملكية الرقبة وملكية الخدمة، غير أن ضرورة عدّ نوعين من الملكية في جميع أحوال التملك أدى ذلك عن طريق غير مباشر إلى إضعاف الأرض حول التملك المتمتع بالحماية الفعلية، والتملك أخذ يتضاءل في أواخر أزمنة الانكلو سكسونية في انكلترا، والواقع أن المحاكم الانكليزية أخذت تُهتَم في قضايا الملكية، وهي أن الطرفين المتنازعين أحق في دعواه على وجه التحديد، بدلاً من الاهتمام أيهما أجدر بأن يعتبر صاحب الحق في الملكية^(٩٢).

إنّ ان المحكمة الإقطاعية كان لها الدور الكبير في الفصل في كافة الشؤون المتعلقة بالملكية موضوع النزاع، والخدمات التي يتم تأديتها والغرامات غير المسدودة وهكذا^(٩٣).

وأشرفت المحاكم في القرية برئاسة وكيل السيد الإقطاعي على تنفيذ تلك الالتزامات المختلفة، ولأن الحماية والقانون لم يكن كافياً ومنصفاً لجميع الناس فكان لا بدّ من إن الفرد يبحث لنفسه عن ظهر يستند إليه من أجل البقاء، حيث

أضحت الحماية التي تعهدها السادة الأقوياء من الإقطاعيين عاملاً مهماً في ضمان الأمن والاطمئنان لجميع الناس^(٩٤).

نستخلص مما تقدم إن المزارع في العصور الوسطى لم يفكر إلا في شؤونه الخاصة، فإذا اعتدى جاره على خط من أرضه فاق اهتمامه لذلك عن اهتمامه بأي أمر من الأمور العامة، إذ إن القرية هي الدولة والحكومة عنده وشؤونها هي وحدها التي تمس حياته ومعيشته وكيانه^(٩٥).

المبحث الرابع

انحسار النظام الاقطاعي وانحلاله :-

من العوامل التي أدت الى انحلال النظام الاقطاعي هي التطورات الاجتماعية والاقتصادية وأهمها :-

نشأة المدن وتطورها :-

إنَّ عدم كفاية الروابط الاقطاعية لاقامة النظام في مجتمع لايعترف الا بالحقوق الفردية وكذلك التقاليد

العنيفة للاستقرارية والتي لاتعرف سوى معنى الحرب تتسبب غالباً في حروب خاصة وتكون من بين

نتائجها الاستعباد ، وهروب الاهالي من الاراضي وتخریب المدن والارياف^(٩٦).

وكانت للحروب الصليبية الأثر الكبير في ترك الفلاحين أراضيهم للاشتراك في النشاط الصليبي^(٩٧).

كل هذه الأسباب دفعت الطبقات الشعبية محاولة منها التخلص عن التحكم الاقطاعي ، كونه يتمتع بامتيازات شخصية في صالح مجموعة نبلاء تخضع للملكية ومكروهة من جانب الشعب والتي تثقل على كاهله دون ان تعطي له خدمة عامة^(٩٨) ، فأصبح حجر عثرة في سبيل اتساع المشروعات الاقتصادية^(٩٩).

وهذا ماحدث في انكلترا بنوع خاص ، اذ اخذ الاقنان ينزحون الى المدن عندما انحل النظام الزراعي القائم على اكتافهم ، فرحبت المدن بنزلاء جدد من الاقنان يسهمون في توفير الايدي العاملة اللازمة ويعيشون في الضواحي القريبة

خارج أسوارها ، فالفرد منهم يتمتع بحرية كاملة داخلها فيتخلص من كل أثر العبودية التي لازمته في حياة الضيقة وحتى قيل ان جو المدينة يخلق الحرية ولكن تساهل المدينة من هذه الناحية ليعني بأي حال تساهلها في منح حقوق المواطن لغير أهلها فالأفراد الذين لا ينتمون الى المدينة يعدون أجنب او اغراباً ، ليس من اليسير ان يصبحوا مواطنين فيها^(١٠٠).

إلا أن يقسموا على احترام نظم المدينة حتى لا يخرق قوانينها فأتجه الأفتان للعمل كعمال مأجورين فيبدؤون عملهم في مطلع الفجر وينتهون منه في غسق الليل الا في مساء السبت وإيام الاعياد ، اذ كان في السنة مايقرب ثلاثين يوماً من أيام الاعياد لكن الايام التي كان العامل يستريح فيها من الكدح في انكلترا لم تكن تزيد على ستة ايام^(١٠١).

فالعامل المتواصل في جميع النواحي ومنها الصناعية والتجارية ، ادى الى تطور المدن ذلك لان المدن القديمة أصابها الذبول نتيجة للاخطار التي تعرضت لها الامبراطورية الرومانية فتناقصت مساحاتها وقلت هيبتها ولم تعد مركزاً للنشاط الحيوي في اوربا^(١٠٢).

ومن الطبيعي ان تختلف المدن في تاريخ نشأتها ولكنها اتفقت جميعاً في العوامل والظروف الأساسية الي صحبت هذه النشأة وادت اليها ، وكانت كل مدينة تحيط نفسها بسور جديد يحدها ويحميها ولم يلبث نمو المدينة واتساعها قيام ضواحي فيقام سور جديد خارجها بعد هدم السور الاول وكذلك جرت العادة بحفر خندق حول سور المدينة الخارجي وعلى هذا الخندق يقام جسر متحرك امام البوابة يرفع ويدلى حسب الحاجة ولما كانت مساحة المدينة محدودة ، فإن أراضي البناء كانت باهضة القيمة ممادفع أصحاب الأملاك الى بناء مباني عالية ذات طوابق متعددة للحصول على ايجارات مرتفعة من السكان ، اما سوق المدينة فكان في ميدانها الرئيس العام ، وهو الميدان التي تطل عليه كنيستها ومبناها الحكومي واتساع الاسواق زاد الانتاج وزيادة الانتاج انعشت التجارة^(١٠٣).

وكانت ما تنتجه الأسواق المطردة الاتساع هو الذي هيا السبيل للنظم الاقتصادية القومية التي قامت عليها المدن الحديثة^(١٠٤).

وعرفت المدينة التي ارتبطت عناصر سكانها بحلف للحصول على استقلالهم بأسم القومونات والتي ظهرت في أواخر القرن الحادي عشر في غرب اوربا ، إذ اجتمع الكثير من سكانها من التجار والصناع والنبلاء ضد الأساقفة

وانتزعوا منهم السلطة والنفوذ لغرض التمتع بنفوذ سياسي واسع واستقلالية مطلقة^(١٠٥) .

ومهما كانت عيوب هذه القومونات في بعض النواحي إلا أنها نجحت في استبعاد الاقطاع من المراكز الرئيسة للصناعة والتجارة في المدن^(١٠٦) .

النقابات :-

كانت كلمة gild الانجليسكونية والتي اشتقت من كلمة guild اي النقابة الطائفية في العصور الوسطى ، وتعني أول الأمر الاشتراك في مال عام ، ثم أصبحت تعني فيما بعد الاشتراك في الجماعة التي تشرف على هذا المال ، ووردت أول اشارة الى النقابات الانكليزية في عام ١٠٩٣^(١٠٧) .

وقد قامت نقابات الحرف على اساس اختيار اعضائها وانتقائهم ، فكان لايسمح لفرد عضويتها الأبعد أن يقدم أدلة كافية على ولائه الديني واخلاصه السياسي ، فضلاً عن مهارته الفنية ، وكانت النقابة الواحدة تضم عدة فئات من الصبيان والعمال والاسطوات^(١٠٨) .

لكن أكثر نقابات القرن الحادي عشر كانت نقابات التجار ولم تكن تضم إلا التجار المستقلين ورؤساء العمال وكانت تحرم من الانضمام ممن يعتمدون على غيرهم ، ولم يحل القرن الثالث عشر حتى كان لكل مدينة مهمة في انكلترا تقريباً نقابة او اكثر ، وحتى كان نوع من الاشتراكية النقابية يسيطر على أحوال الناس في انكلترا^(١٠٩) .

الصناعة والتعدين :-

وخطا الناس بعض الخطوات في مجال صناعة المنسوجات والمصنوعات الزجاجية والعطور والصناعات الحديدية ، وعملوا على تسخير القوى الطبيعية واستعمالها لمنفعتهم ، من خلال استعمال الطاحونة المائية في انكلترا في عام ١٠٨٦ الي عدت اداة رئيسة من ادوات الصناعة^(١١٠) .

فضلا عن اعمال التعدين التي نهضت وقتئذ نهضة فجائية عظيمة ومنها استخراج الذهب والفضة وكان الحدادون والصائغون كثيري العدد وذلك لأن الذهب والفضة لم يكن يستعملها الناس للمباهات بمكانتهم او لاختفائها فحسب بل كان يستعملان فوق ذلك لوقاية صاحبها من العملة المنتقصة فأعطاه من الازمات نوعاً من الثروة يستطيع تحويله الى طعام أوسلع ، فادعى ملوك انكلترا انفسهم الحق في ملكية جميع رواسب الذهب والفضة ، اما المعادن الدنيئة فكان

بإستطاعة صاحب الأرض ان يستخرجها بشرط ان يدفع عن ذلك اتاوة للملك ، وكان فحم الخشب هو الذي يستعمل في صهر المعادن ، فالكثير من الخشب يستعمل في افرانٍ ظلت حتى ذلك الوقت بحالتها البدائية^(١١١) .

التجارة والنقود :-

كانت المدينة سوقاً تجارياً مركزياً يتعارض مع الفكرة التي قامت عليها التكتلات الإقطاعية للضياع مما ترتب عليه انهيار نظام الاكتفاء الذاتي للضيعة وقيام العلاقات المتبادلة مع المدينة فيرسل إنتاج الريف الى أقرب مدينة ليبيع فيها بدلاً من إرسالها الى مقر المالك الإقطاعي^(١١٢) .

فامّا التجارة فلم يكن بمقدورها أن تتقدم ما دامت قائمة على المبادلة بل اصبحت تتطلب مستوى ثابتاً للقيم وواسطة للتبادل سهلة ووسيلة ميسرة مفتوحة لاستثمار الأموال وكان من حق سادة الإقطاع وكبار رجال المدن في القارة الأوروبية في عهد الإقطاع أن يسكوا النقود ولهذا عانى الاقتصاد الاوربي الأمرين من جراء الفوضى النقدية^(١١٣) .

فإنّ التقدم في استعمال النقود سار سيراً حثيثاً على الرغم من ان اقتصاد المدن استنبع التوسع في نظام الأجر النقدي بدلاً من نظام الخدمة الإقطاعية^(١١٤) .

ولم يكن الانكليز عملة ذهبية الا في عام ١٣٣٤ ، اذ ظلت عملتها الفضية اكثر العملات استقراراً في أوربا في تلك الفترة ، لقد كان أهم مصدر للنقود هو الكنيسة وذلك بفضل ماكان لها من رأس مال تستطيع توجيهه في جميع الأوقات ولأي غرض تشاء فهي بذلك أعظم قوة مالية في العالم المسيحي في العصور الوسطى ، وكان التجار الاغنياء يرمون من غطرسة الاشراف ، ويحتقرون ويستغلون طبقة الصناع وقيمون في بيوت مزخرفة ، ويبتاعون الاثاث الجميل ويتغذون الاطعمة من خارج البلاد ، ويلبسون الثياب الغالية ، وكانت نساؤهم تلبس الحرير والفراء والجواهر ، وكان التجار الاغنياء يرمون من غطرسة الاشراف ، ويحتقرون ويستغلون طبقة الصناع وقيمون في بيوت مزخرفة ، ويبتاعون الاثاث الجميل ويتغذون الاطعمة من خارج البلاد ، ويلبسون الثياب الغالية ، وكانت نساؤهم تلبس الحرير والفراء والجواهر^(١١٥) .

وظلت المبادلات التجارية في جميع البضائع كالجلود والفراء والبخور والطور والصناعات الحديدية وغيرها^(١١٦) .

وسائل النقل :-

ان وسائل النقل كانت أقل العوامل تقدماً ، حيث ان معظم الطرق الرئيسية في العصور الوسطى مليئة بالأتربة والأقذار والأوحال ولم تكن هناك قنوات تنقل الماء من الطرق ولهذا كثرت الحفر والبرك وكانت القناطر قليلة وعربات الركوب كبيرة وغير مريحة ، فلم تكن الأموال المتوفرة كافية لإنشاء عربات جديدة وإصلاح الطرق حتى القرن الثالث عشر ، اذ شرعت مدن انكلترا ومنها لندن في رصف شوارعها واصلاح القناطر وتشيدها ، وأكثر ما يستعمله الناس في النقل هي المسالك المائية ، فأصبحت السفن لها شأن عظيم في نقل البضائع فقد كانت السفينة الواحدة تحمل ماتحملة خمسمائة دابة ، وكانت الى هذا اقل نفقة من الدواب ومن أجل ذلك كانت انهار أوربا المنتشرة من نهر Tagus الى نهر Volga من أهم مسالكها العامة ، وكان اتجاه هذه الانهار ومصابها العامل الرئيسي في انتشار السكان ونمو المدن ، بل والسياسة العسكرية للأمم في كثير الاحيان ^(١١٧) .

ومع هذا كله فإن ا بواكير الثورة الاقتصادية التي قامت في القرن الثالث عشر هي التي قضت آخر الأمر على الاقطاع وهي التي امدت الاعمال الصناعية والتجارية بالالات اللازمة لتقدمها ، ومانشاً من هذا التقدم زيادة كبيرة في سلطات الرجل الأوربي ووسائل راحته وكان تيار الصناعة والتجارة الجارف قد اكتسح العقبات المتأصلة عن طريق التطور البشري ، ودفع الناس الى الأمام من مجد الكنائس الكبرى المشتت الى مرجل النهضة الشامل ^(١١٨) .

خلاصة البحث

توصل الباحث الى عدد من الاستنتاجات الآتية :-

هياً الفتح النورماندي الظروف لظهور الإقطاع وهو نظام سياسي اجتماعي واقتصادي قائم على استثمار عبيد الأرض والأقنان والحرفين، إذ لم يكن وليداً لفكرة معينة أو سنة محددة، وإنما جاء بسبب انتشار الفساد والفوضى في تلك المدة وأهم عناصره هو السيد الإقطاعي وصفته مالك الأرض والتابع من طبقة العبيد والمحكوم عليه بفلاحة الارض والعمل فيها ، اذ تكون المجتمع الأوربي من ثلاث طبقات، رجال الدين القائمون على الكنيسة وهي الطبقة المسيطرة، والأسياذ وهي الطبقة الحاكمة التي أحياناً تخضع للكنيسة خوفاً من قرار الحرمان كونهم في أعلى السلم الإقطاعي ، والمزارعون الذين لا حول ولاقوه لهم ويحاولون البحث عن حياة أفضل ظنوا أنها في ظل الكنيسة ، اذ وصفهم ديورانت في كتابه قصة حضارة (اذا جاء الشتاء دخل الفلاح وزوجته وابناءه وبهائمهم وضيوفه الى الكوخ ليدفئ بعضهم بعض) .

وسيطرت الكنيسة على جميعها نواحي الحياة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ولذلك خرجت الحروب الصليبية بدعوة منها ولها الأثر الكبير في ضعف الإقطاع نتيجة هروب الكثير من العبيد للمشاركة في هذه الحروب ولم يكن السادة قادرين على منعهم لأنّ البابوية باركت فيها ومن يشارك فيها . عمل القضاء الإقطاعي وإجراءاته التعسفية على نُصرة السادة الإقطاعيين وظلم المزارع واضطهاده، إذ لم يحصل للمزارع أي تغييرات لتطوير حياته وإنما ظل عاكفاً لسنوات في خدمة السيد الإقطاعي ، لقد اسهمت التغيرات في مجال الصناعة والتجارة وحياء المدن وتطورها وظهور القوميات المتعددة بعد ان كان الإقطاع هو المسيطر على جميعها مرافق الحياة في تلك الحقبة في انحلال الإقطاع وبالتالي الى انهياره إبان الثورة الاقتصادية التي قامت في أوروبا .

الهوامش:-

- (١) محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩١، ص٢٤٢.
- (٢) موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص٦١.
- (٣) محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص٢٤٣.
- (٤) موريس بيشوب، المصدر السابق، ص٦٤.
- (٥) سعيد السيد علي قرغلي، اضمحلال حكم الانجلو سكسون في انكلترا (٩٧٩-١٠٦٦)، القاهرة، دار المعرفة، ٢٠٠٤، ص٤٩٦.
- (٦) الإقطاع:- إقطاع الشيء يكون تملك وغير تملك يقال استقطاع فلان قطيعة فأقطعه إياه اذ ساله ان يقطعها له وبينها ملكاً فأعطاه إياه والإقطاع للأرض جعل غلتها رزقاً. ينظر ابن منظور، لسان العرب، القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠٣، ج٧، ص٧١١.
- (٧) نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، دمشق، دار الفكر العربي، ١٩٨٢، ج١، ص٦٨٥.
- (٨) ج.و. كوبلاند، الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا، ط٣، ترجمة: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص١٣٢.
- (٩) موريس بيشوب، المصدر السابق، ص٦١.
- (١٠) محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص١٢٩.
- (١١) هيربرت فيشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: محمد زيادة، ط٦، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٣، ص١٦٥.
- (١٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ط٦، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٩١، ج١، ص٦٨٦.
- (١٣) محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص٢٤٥.
- (١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص٤٦٩.
- (١٥) س. ورن هليستر، أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٨، ص٢٠٢.

- (١٦) س . ورن هليستر، المصدر السابق، ص ٢٠٢.
- (١٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.
- (١٨) علي حيدر سليمان، تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة، ط١، بغداد، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠، ص ٢٤.
- (١٩) منصور المخلصي، الكنيسة عبر التاريخ، بغداد، مطبعة المشرق، ١٩٩٧، ص ١٣.
- (٢٠) المصدر نفسه، ص ١٣.
- (٢١) علي حيدر سليمان، المصدر السابق، ص ٢٦.
- (٢٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٢.
- (٢٣) غريغوريوس السابغ:- وهو الراهب الكلوني هيد ليراند سميّ عند تعيينه بابا بـ (غريغوريوس السابغ) وكان ذو خبرة طويلة وإداره ثابتة في الإصلاح الكنسي، ينظر: منصور المخلصي، المصدر السابق، ص ١٣٩.
- (٢٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٣.
- (٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٦٩.
- (٢٦) المصدر نفسه، ص ٤٧٠.
- (٢٧) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، الكويت، المجلس الوطني، ١٩٩٠، ص ٥٥-٥٦.
- (٢٨) منصور المخلصي، المصدر السابق، ص ١٤٦.
- (٢٩) جلال يحيى، اروبا العصور الحديثة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١، ص ٣٠.
- (٣٠) علي حيدر سليمان، المصدر السابق، ص ٢٦.
- (٣١) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٦٤.
- (٣٢) كوبلاند، المصدر السابق، ص ٥٦.
- (٣٣) موريس كيت، حضارة أوربا العصور الوسطى، ط١، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، ١٩٩٤، ص ٥٢.
- (٣٤) سيدي بانتر، تاريخ الحروب الصليبية، ط١، ترجمة: سعيد عبد المحسن، فلسطين، منشورات بيت المقدس، ٢٠٠٤، ج ١، ص ١٥.
- (٣٥) ول وايريل ديورانت، قصة حضارة، ترجمة: محمد بدران، بيروت، دار الجيل للطباعة والتوزيع، ٢٠٠١، ج ٤، ص ٥٥٤.
- (٣٦) هـ . و. ديفر، أوربا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي، ط١، القاهرة، مكتبة المعارف، ١٩٨٥، ص ١٠١.
- (٣٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٩٢.
- (٣٨) ادوار بوري، تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى)، ط٢، بيروت، مطبعة عويدات للطباعة والنشر، ١٩٨٦، ص ١٩٩.
- (٣٩) (الضيعة):- حرفة الرجل وصناعته ومعاشه وكسبه . يقال : ماضيعةك ؟ أي ماحرفتك . واذا انتشرت على الرجل أسبابه : فيشت ضيعة حتى لا يدري بأيها يبدأ ومعنى فشت اي كثرت . كان ضيعة العرب سياسة الابل والغنم . ويدخل في الضيعة الحرفة والتجارة . يقال للرجل قم الى ضيعةك . قال الازهري الضيعة والضياع عند الحاضرة مال الرجل من النخل والكرم والارض والعرب لاتعرف الضيعة الا الحرفة والصناعة . والضيعة : العقار . والضيعة : الارض المغلة ينظر: ابن منظور، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٤٥-٥٤٦.

- (٤٠) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٧٤.
- (٤١) المصدر نفسه ، ص ٩٤.
- (٤٢) كيت، المصدر السابق، ٤٩.
- (٤٣) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٩٤.
- (٤٤) ول وايريل ديورانت، المصدر السابق، ص ٢٧٦.
- (٤٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٩٧.
- (٤٦) بروي، المصدر السابق، ص ١٩٩.
- (٤٧) ول وايريل ديورانت، المصدر السابق، ص ٢٧٥.
- (٤٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٩١.
- (٤٩) ديفز، المصدر السابق، ص ٨٨.
- (٥٠) جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ اوربا العصور الوسطى و حضارتها، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٠٨.
- (٥١) كوبلاند، المصدر السابق، ص ٤.
- (٥٢) ج. ج. كولتون، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٤١-٤٢.
- (٥٣) محمد محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى، القاهرة، الشهابي للطباعة والنشر، ١٩٩٨، ص ٩.
- (٥٤) بيشوب، المصدر السابق، ص ١٢١.
- (٥٥) كوبلاند، المصدر السابق، ص ٦.
- (٥٦) السيد الباز العربي، الحضارة والنظم الأوربية في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٣، ص ٩.
- (٥٧) (الافتان):- مفردها قن فالقن فلاح قراري يعيش على قطعة من الأرض يمنحها إياه سيده متملك الدومين وهو مربوط بهذه الأرض ولا يسمح له بتركها، ينظر: كوبلاند المصدر السابق، ص ٣٦.
- (٥٨) العربي، المصدر السابق، ص ٦٧.
- (٥٩) الشيخ، المصدر السابق، ص ٥١.
- (٦٠) العربي، المصدر السابق، ص ٥٨.
- (٦١) كوبلاند، المصدر السابق، ص ٧.
- (٦٢) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث، ط٣، القاهرة، دار المعارف، ص ٧.
- (٦٣) كوبلاند، المصدر السابق، ص ٩-١٠.
- (٦٤) محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص ٧١.
- (٦٥) كوبلاند، المصدر السابق، ص ١٢.
- (٦٦) بيشوب، المصدر السابق، ص ١٢.
- (٦٧) كوبلاند، المصدر السابق، ص ٦٢-٦٣.
- (٦٨) كوبلاند، المصدر نفسه، ص ١٥-١٦.
- (٦٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٣٨٢.
- (٧٠) كوبلاند، المصدر السابق، ص ٢٢-٢٣.
- (٧١) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٤٠٦.
- (٧٢) هلستر، المصدر السابق، ص ١٤٣.
- (٧٣) الشيخ، المصدر السابق، ص ٤٤.

- (٧٤) العريني، المصدر السابق، ص ٥١.
- (٧٥) (السلام الالهي):- وهو الذي اتخذته المجاميع الدينية التي انعقدت لأول مرة في اكتسبانيا وبرجندا العام ٩٨٩م لتتكر الفوضى والاضطراب التي ادت الى تخريب الكنائس، ينظر: باركر، المصدر السابق، ص ١٠.
- (٧٦) الشيخ، المصدر السابق، ص ٤٤، العريني، المصدر السابق، ص ٥١.
- (٧٧) محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص ٨٣.
- (٧٨) الشيخ، المصدر السابق، ص ٤١-٤٤.
- (٧٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٦٦.
- (٨٠) (مطهم):- الحُسن التام والناعم والمنفخ الوجه فهو بارع الجمال ينظر:- ابن منظور، المصدر السابق، ص ١٥٤.
- (٨١) الشيخ، المصدر السابق، ص ٤٣.
- (٨٢) (فارس الحمام) :- لقب بهذا الاسم لأنه يوم الاحتفال بتثبيته كفارس يستحم رمزاً للتطهير الجسدي والروحي، ينظر محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص ٨٦.
- (٨٣) المصدر نفسه، ص ٨٥.
- (٨٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٤٠٦.
- (٨٥) الشيخ، المصدر السابق، ص ٤٠.
- (٨٦) محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص ٢٠.
- (٨٧) بانتر، المصدر السابق، ص ١٩.
- (٨٨) (المكوس):- وهي ضريبة العشر المقررة على ماتخرجه الارض من الزرع والماشية وهي شائعة في كافة البلاد المسيحية، ينظر كوبلاند، المصدر السابق، ص ٤٩.
- (٨٩) بيرين، المصدر السابق، ص ٦٧.
- (٩٠) العريني، المصدر السابق، ص ٤٠.
- (٩١) محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص ٢٠.
- (٩٢) كوبلاند، المصدر السابق، ص ٧٤-٥٧.
- (٩٣) كولتون، المصدر السابق، ص ٩٢.
- (٩٤) كوبلاند، المصدر السابق، ص ٦٦-٦٧.
- (٩٥) المصدر نفسه، ص ٤٦.
- (٩٦) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ٥٩.
- (٩٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٨٧-٨٨.
- (٩٨) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ٦١-٦٢.
- (٩٩) ول وايريل ديورانت، المصدر السابق، ص ١٤٥.
- (١٠٠) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ١٠٢.
- (١٠١) ول وايريل ديورانت، المصدر السابق، ص ١٤٣.
- (١٠٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ١٠١، ١٠٢.
- (١٠٣) المصدر نفسه، ص ١٠١، ١٠٢.
- (١٠٤) ول وايريل ديورانت، المصدر السابق، ص ١٤٦.
- (١٠٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ١٠٥.
- (١٠٦) ديفز، المصدر السابق، ص ١٠٤.
- (١٠٧) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ١١٣.
- (١٠٨) المصدر نفسه، ص ١١٤.

- (١٠٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ١٠٨.
- (١١٠) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ١١٣.
- (١١١) المصدر نفسه، ص ٨٧، ٩٠.
- (١١٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ١٠٥.
- (١١٣) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر نفسه، ص ١٠٤.
- (١١٤) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ٩٤.
- (١١٥) المصدر نفسه، ص ٩٤، ٩٦، ٩٧.
- (١١٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ١٠٤.
- (١١٧) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ٨٦.
- (١١٨) ول وايريل ديورانت، المصدر السابق، ص ١٤٦.

المراجع العربية :-

- جلال يحيى، أوروبا العصور الحديثة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١.
- جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الاوسطى الاوربية وحضارتها، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤.
- سعيد السيد علي فرغلي، اضمحلال حكم الانجلو سكسون في انكلترا (٩٧٩ - ١٠٦٦)، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٤.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٣، ج ١، ج ٢.
- السيد الباز العريني، الحضارة والنظم الاوربية في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٣.
- علي حيدر سليمان، تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة، ط ١، بغداد، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠.
- عمران، محمود سعيد، حضارة اوربا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩١.
- قاسم عبدة، ماهية الحروب الصليبية، الكويت، المجلس الوطني، ١٩٩٠.
- محمد بن مكرم الأفريقي المصري ابن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠٣، ج ٥، ج ٧.
- محمد محمد مرسي، النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى، القاهرة، الشهباني للطباعة والنشر، ١٩٩٨.
- منصور المخلصي، الكنيسة عبر التاريخ، بغداد، مطبعة الشرق، ١٩٩٧.
- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، دمشق، دار الفكر العربي، ١٩٨٢، ج ١.

قائمة المراجع الاجنبية المترجمة

- ادور بيروي ، تاريخ أوربا القرون الوسطى ، ط٢ ، بيروت ، مطبعة عويدات للطباعة والنشر ، ١٩٨٦ .
- ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ .
- ج.ج : كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٣ .
- سن ورن هليستر ، أوربا في العصور الوسطى ، محمد فتحي الشاعر ، مصر ، مكتبة الانجلو مصرية ، ١٩٨٨ .
- سيدني بانتر ، أوربا الغربية عشية الحروب الصليبية ، ترجمة ، سعيد عبد المحسن ، رام الله ، منشورات بيت المقدس ، ٢٠٠٤ ، ج ١ .
- موريس بيشوب ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة ، علي السيد علي ، القاهرة ، المجلس الاعلى للثقافة ، ٢٠٠٥ .
- موريس كيت ، حضارة أوربا العصور الوسطى ، ط ١ ، ترجمة ، قاسم عبدة قاسم ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ١٩٩٤ .
- هربرت فيشر ، اصول التاريخ الاوربي الحديث ، ط ٣ ، ترجمة ، زينب عصمت راشد ، مصر ، دار المعارف ، ٢٠٠١ .
- هربرت فيشر ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ط ٦ ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٥٠ .
- هـ.و ، ديغز ، أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة ، عبد الحميد حمدي ، ط ١ ، مصر ، مكتبة المعارف ، ١٩٥٨ .
- ول وايريل ديورانت ، قصة حضارة ، ترجمة ، محمد بدران ، بيروت ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠٠١ ، ج ٤٢ .

Feudalism in England in eleventh century

Baydaa G. Mohammad
College of education
University of Baghdad

Abstract:

All aspects of life are controlled directly or indirectly by the church. The Crusades has the essential role in the weakness of feudalism because a lot of slaves escaped to participate in these wars and the Masters were unable to prevent them since the church blessed these Wars and the Participants. Tyrannous procedures of Feudal judiciary aim to support the feudal lords and tyrannize the farmer, as the farmer remained deeply engaged in Feudal lord's service without any change in his own life. The changes in the fields of industry, trade, renovation and development of the cities and the emergence of the Plurination when the feudalism has a dominant role on all aspects of life in this period contributed in feudalism decay and subsequently its ruin during the economic revolution in Europe.